١٤

شخصيَّة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي من خلال مراسلاته

أ. توفيق عياد الشقروني
الهيئة الليبية للبحث والعلوم والتكنولوجيا - ليبيا
shagarouni@me.com

ملخَّص:

تسلط الدراسة الضوء على شخصيَّة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، وتتناول بالتقصي والبحث جوانب من خصائص الإمام المعرفية والعلمية، وسيرته وخبرته وفتاواه وإصلاحاته، وذلك بتحليل مراسلاته الرسمية التي بعثها إبّان توليه شؤون الإمامة والموجهة إلى شخصيات وطنية وخارجية، وتضمنت مختلف مجالات الحياة بتنوعاتها. ومن خصائص شخصيَّة الإمام التي استنبطتها الدراسة من تلك المراسلات إيمانه العميق ويقينه بالله ﷻ، واهتمامه بالولاة والقضاة، وتوجيه النصح والإرشاد، وتقبله المشورة والنقد وتبادل الأفكار، والتقدير والاحترام والعطف على الرعية، والدقة وتبيان الأمور، والموازنة بين الشدة والحزم، وحسن السياسة والتدبير، واهتمامه بطلبة العلم، وتقديم الفتاوى الدينيَّة لمن يطلبها، وإقامة الشرع، وعنايته بالعلاقات الخارجيَّة، وسعيه إلى الصلح مع مسقط.

كلمات مفتاحيَّة: شخصيَّة. مراسلات. الولاة. العلاقات الخارجيَّة. الرعيَّة.

مقدِّمة:

الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي (١٣٧٣هـ/١٩٥٤م) -رحمه الله- من الشخصيات الموسوعية التي زخر بها التاريخ الإباضي عمومًا، والعُماني خصوصًا. وقد تناول العديد من الباحثين هذه الشخصيَّة، بالبحث والتحليل، وتناولوا فتاواه الفقهيَّة بالدرس. ولما كان - رحمه الله -شخصيَّة غنية في علمها، وعميقة في تأثيرها، نجد أنفسنا مقصرين حياله، ونحن في أمسِّ الحاجة اليوم إلى تسليط الضوء على هذا المعين الحاوي لكنوز المعرفة، وتناول علمه وسيرته وخبرته وفتواه وإصلاحاته بالتقصي والبحث والتحليل.

تلقي الورقة الضوء على شخصيَّة الإمام - رحمه الله - من زاوية المراسلات الرسمية التي بعثها إبان توليه شؤون الإمامة، والموجهة إلى عدة شخصيات وطنية وخارجية. وتتبين الورقة شخصيَّة الإمام، وتستقري بعضًا من آليات تفكيره واتجاهات آرائه ومنطلقات سياسته وعماد توجهاته، في محاولة لتكوين صورة أولية تُبرز جوانبها الفكرية والعقدية والإنسانية.

ولم يُعرف عن الإمام قيامه بالتأليف رغم غزارة علمه وتبحره، فمشاغل السياسة والحكم- فيما يبدو- لم تترك له الوقت لذلك. ويعوض عن ذلك النقص ما قام به أحد تلاميذه من جمع لمجموعة الفتاوى والرسائل وترتيبها في كتاب "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل" الذي عني بإخراجه وطبعه الأستاذ عز الدين التنوخي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق في سنة (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م).

وتعتمد الورقة بشكل أساسي على المراسلات التي وردت في بداية كتاب "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل"، التي توفرت لدى الباحث مصدرا للمعلومات، ويعتذر الباحث عن عدم الاطِّلاع على أرشيف الإمام الرسمي، لبعد الشقة، ولعل الباحث سيستدرك هذا النقص في فرصة ثانية. ولا يفوت هنا تقديم الشكر للأخت الفاضلة خديجة علي كرير، التي سعت عبر علاقاتها بتوفير مراجع هذه الورقة، فلها جزيل الشكر والامتنان.

وقد بلغ العدد الإجمالي لمراسلات الإمام الواردة في الكتاب ٩٧ رسالة فقط وهو يعد قليلا جدًّا كونها مراسلات رسمية بالقياس إلى سنوات تولي الإمام الحكم،

التي تتجاوز الثلاثين عامًا. ولم تسعفني المصادر المطبوعة التي توفرت لدي لاستكمال النقص فيها، والاطلاع على غيرها من المراسلات. وقد أورد الأستاذ الشكيلي في كتابه: "مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي وأثرها في نشر العلم" جملة من المراسلات التي نقلها بدوره عن كتاب "النمير حكايات وروايات" للأستاذ محمَّد بن عبد الله بن سعيد السيفي، واستفدنا منها. وممَّا لاشك فيه أن هذه الصورة عن شخصيَّة الإمام تحتاج إلى تعزيز؛ من خلال الفتاوى التي حكم بها، والمصادر التي تكلمت عنه، والمراجع التي ألفت فيه، وهذا ما سنتركه في فرصة ثانية إذا شاء الرحمن سبحانه وتعالى.

مراسلات الإمام الخليلي ومدى تعبيرها عن شخصيته:

وممَّا تمتاز به هذه الرسائل ما يأتي:

- غناها بالمعلومات التاريخية السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة التي تسلط الضوء على فترة مهمة من تاريخ الدولة وحياة الإمام. وبتتبع تواريخ تحرير مراسلات الإمام الواردة بكتاب "الفتح الجليل" يتبين أن أولى مراسلاته كانت موجهة للشيخ سليمان باشا الباروني عندما زار عُمان في سنة ١٣٤٢هجرية، وهذا يعطي دليلا بأن الكتاب لم يحتوِ على كلِّ مراسلات الإمام. توجد فجوة من أربع سنوات بين توليه سنة ١٣٣٨هـ وزيارة الباروني باشا سنة ١٣٤٢هـ.
- عنايتها بمختلف الجوانب الحياتية، السِّياسيَّة منها والإصلاحية.
- تميُّز أسلوب الإمام في مراسلاته بالاختصار في الحديث والانتقال المفاجئ بين المواضيع.
- تعدُّد محرري الخطابات والحرص على ذكر الاسم في كثير من الأحيان.
- الحرص على كتابة تاريخ المراسلات.

إيمان الإمام العميق ويقينه بالله ﷻ:

تنبئ رسائل الإمام عن تمسكه العميق بالحق، واتِّباعه نهج الأولين، وتمسكه بالقرآن الكريم مصدرًا للعلم، والسنَّة النبويَّة الشريفة منهاجًا ونبراسًا، وتحريضه

غيره على اتِّباع هذا المنهج، فيقول: "ينبغي للعاقل أن يكون في الزلازل وقورًا وعند الرخاء شكورًا، ونوصيكم أن تتمسكوا بالكتاب والسنَّة؛ فمن تمسك بهما فقد هدي إلى صراط مستقيم"[١]، ويقول أيضًا: "فنحن على يقين أن الله ينصر من ينصره وما النصر إلاَّ من عند الله"[٢]. ويدعو الإمام إخوانه لاتِّباع الصراط المستقيم بالقول: "نحن علينا مناصرة الحق، ولا نصرنا الله أن لم ننصر الحق. والله لم يضيع المسلمين في موطن، نصرهم في مواطن على ضعفهم، فنحن على يقين أن الله ينصر من ينصره"[٣].

ويحذر الإمام من مغبة الفتنة، والانزلاق عند نزول الابتلاء، فيقول: "ولا تهولنكم الأمور إن كنتم متبعين الحق، فإنَّه لا يمكن للإنسان أن لا يبتلى، وقد مضت سنة اللهِ في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وكفى بالقرآن حيث قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٢٨)، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (سورة الصافات: ١٧٣)، فهذا وعد لن يخلف، ولكن القصور والتقصير يكون من العبيد"[٤]. ويقول الإمام في واحد من أجمل التعابير، التي توضح نهجه المتزن والصلب، والتي يمكن أن تُعَدَّ شعارًا ومنهاجًا له في سيرته: "لا قريب ولا بعيد ولا بغيض ولا حبيب إلاَّ الاستقامة وعدمها، وما عدا ذلك لغو وتملق وتشدق"[٥]. وهذه الوصايا تدلُّ على إخلاصه النية في العمل، ووضوح الرؤية في المنهج.

توجيهات الإمام إلى الولاة والقضاة:

تدلُّ الرسالة التي بعثها الإمام إلى الشيخ صالح بن حمد بن صالح على عنايته بالولاة والقضاة. فهذه الرسالة لا تقف عند توجيه الإمام الشيخ صالح إلى اتِّباع بعض السياسات المالية، وتكليفه بجملة من المهام، منها إعداد العسكر وعديدهم، وتوضح سبل صرف الأموال على وفق المهام الموكلة للشيخ[٦]، بل تشمل جملة من

١) الخليلي، محمَّد عبد الله: الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل، ط١، دمشق: المطبعة العربيَّة، ١٩٦٥م، ص١٧.
٢) المصدر نفسه، ص١٩.
٣) المصدر نفسه، ص١٨.
٤) المصدر نفسه، ص١٧.
٥) المصدر نفسه، ص٤٦.
٦) المصدر نفسه، ص٣٧-٣٨.

المبادئ التي يؤمن بها الإمام في تسيير أمور العباد وتبيان الحقوق، ويوجه عماله إليها ويرشدهم إلى ما لهم وما عليهم، فيفصّل لهم النهج والسلوك. ويمكن إجمال تلك المبادئ في النقاط الآتية:

- الحث على الإخلاص في العمل لوجه الله تعالى.
- الالتزام بأخذ الزكاة بما افترضها الله على عباده دون ظلم أو نقصان.
- النصح للرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- الحث على الاستعانة بذوي الخبرة والأخلاق وتوظيفهم في تنفيذ الأعمال والمهام.
- ضرورة الاجتهاد في تنفيذ أمور الرعية والوقوف عليها بكلِّ جدية.
- الاقتصاد في المصاريف التي تدفع من خزينة الدولة، والتحذير من الصرف الزائد عن الحاجة.
- أن تكون أعطيات الناس بمقدار خدمتهم.
- من حق العامل أن يتقاضى مرتبه من خزينة الدولة (١٠٠ قرش شهريًّا) وأيضا مبلغًا سنويًّا (٣٠٠ للتمر والرُطب)[١].

وللإمام معرفة عامَّة برجاله، وقدراتهم، وخبراتهم، فيتحدث بنفسه في أحد رسائله عن مزايا أحد عماله، وأُسس اختياره له قائلاً: "ولا أقول أن سعيد بن حمد صاحب ورع وتقوى إلاَّ أنَّه صاحب حزم وعزم وسياسة وجدٍّ في الأمر، وفيه يقدِّم الأكابر ويراعيهم ويحترس لنفسه ويعلم أن الناس يقولون، فهو يعد لكل مقال جوابًا ولكل مطعن مخرجًا"[٢].

وعلى الرغم من وضوح رأي الإمام إلاَّ أنَّه لا يتشبث به. ويترك الإمام للولاة فسحة لتقديم رأيهم وأخذ مشورتهم. ففي رسالة بعثها إلى حمد السالمي الذي

١) هذه القيمة المالية خاصَّة بالشيخ صالح بن حمد، ولا نفترض تعميمها على كلِّ العمال في عهد الإمام الخليلي. المصدر نفسه، ص٣٧-٣٨.

٢) المصدر نفسه، ص٤.

طلب موافقة الإمام على تعيين أحد الأشخاص - واسمه "السلامي" - قاضيًا، كان الإمام حازمًا في رفضه، فيقول: "والسلامي رجل كما ذكرت، ولكن لا يكفي لتحمل القضاء بين الناس، ولكن إذا كنت هناك فالقضاء مرجعه إليك والسلامي يتحمل ما يقدر عليه ويحسنه من أمر الأحكام، فإن رأيتما ذلك، فهذا نراه أرفق وأوفق"[١].

ولا يتوانى الإمام بالتصريح لرعيته؛ أنَّه يحاسب موظفيه وعماله، فيوجههم بالقول: "وما عذرناه عنها لأمر نعده عليه، ولو كان لأمر نعدُّه عليه في دينه لقوَّمناه وعزلناه"[٢]. وأنَّه لا يكلف أحدا بمهمة من أجل إرضاء آخرين أو كراهيتهم، بل لأجل الكفاءة والمهارة، وهي أساس التكليف، وإن كره بعضهم ذلك، ولا تجب مسايرتهم في الباطل، فيقول الإمام الخليلي - رحمه الله -: "ونعلم يقينًا أن كثيرًا من الناس لا يحب ذلك، وليس من يكره الحق يعطى سؤله"[٣]، بل يرى الإمام أن واجبه اتِّباع الصراط المستقيم فيقول: "نحن علينا مناصرة الحق، ولا نصرنا الله إن لم ننصر الحق"[٤].

ومن ثقة الإمام في قضاته يخير المتنازعين، ويترك لهم حرية اختيار من ينظر في قضيتهم من القضاة: "وأمَّا محمَّد بن حمد وسعيد بن سالم فالنظر عند سيف بن حمد إن أراد الحكم هناك فالنظر إليه، وإن أراد الحكم هنا فالزمهم الوصول إلينا بعد عيد الحجِّ الأكبر يكونون صحبتهم وسيف بن حمد هذا والسلام"[٥]. وفي سياق ثنائه على الشيخ حميد ينبه بأن: "من يريد إنفاذ الأحكام لابد من أن يجد المعارض والمنافس وهل سالمت الدنيا أحدًا، (...) فهذه الدنيا دار اختبار"[٦].

ويأمل الإمام الخير من عماله؛ فبعد أن يرسل سعود بن سليمان بن محمَّد الكندي إلى الشيخ حمد بن سلمان بن حميد يدعمه بالقول: "بالجملة الناس يتفاوتون أدبًا ودينًا وأخلاقًا، وقيمة كل امرئ ما يحسنه، والرجال صناديق مقفلة

١) المصدر نفسه، ص٢٠.
٢) المصدر نفسه، ص١٨.
٣) المصدر نفسه، ص١٨.
٤) المصدر نفسه، ص١٨.
٥) المصدر نفسه، ص٢١.
٦) المصدر نفسه، ص٢٢.

والتجارب مفاتيحها"[١].

كما أن الإمام شديد الرعاية لولاته، فلا يُحمّلهم من الأمور ما لا يطيقون، وخاصة فيما يتعلَّق بالأحكام، فيكتب للشيخ محمَّد بن عبد الله بن حميد ، موجهًا وناصحًا له بأنَّه لا يمكنه توجيه الاتهام بالتكهن لأفعال الناس في المستقبل أو الظن فيهم بغير دليل، كما حصل في مسألة امرأة تسمى (كبيسة السلامية) بيعت في (عبري) واتُهم في بيعها مجموعة من الرجال: "وأقول: يا محمَّد... الله نسأله الإعانة... ولا نحملك ونكلفك أمرا لا يلزمك والسلام"[٢]. وهذا يثبت بوضوح سعة تقدير الإمام للرجال، وإنزالهم منزلتهم التي يستحقون، وعدم الأخذ بالشبهات والظنون.

ومجمل القول أن توجيهات الإمام الخليلي -رحمه الله- لولاته وحرصه كل الحرص، على توجيههم ورعايتهم ومتابعتهم تتمحور حول الأفكار الآتية:

- على من يتولى أمر المسلمين أن يكون قادرًا على تحمل مشاقِّ هذه المهمة ومتاعبها؛ فدفع الصعاب وتحمل أذية الرعية من ضرورات العمل.
- إرضاء الناس غاية لا تدرك، وبعضهم يعيبون على المتولي كل خطوة يخطوها؛ لذا فإن المضي في الحق أفضل من الالتفات لإرضاء ذوي النفوس المريضة.
- على المتولي لأمر المسلمين أن يكون رصينا جلدا ذا قلب شديد، لا تنال منه صعوبة المواقف وشدة المعارضة، فيكون حازمًا في الحق.
- أن يكون متسامحا ذا نفس رضية، وأن يتقبل رعيته ونقدهم وغمزهم ولمزهم فيه.
- التحذير من ضيق القلب عملا بقوله تعالى موجها رسوله الكريم، صلوات الله عليه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٩).

الأخذ بالمشورة والنصيحة وتبادل الأفكار مع الرعية:

---

١) المصدر نفسه، ص٣٥.

٢) المصدر نفسه، ص٢٦.

تزخر مُخاطبات الإمام الخليلي -رحمه الله- بالعديد من الإشارات، التي تدلُّ على مواقفه المسترشدة، إلى جانب نهج القرآن الكريم وسنة النبي محمَّد ﷺ، بمشورة ذوي العلم والفقهاء وعلية القوم من الشيوخ فيما يريد أن يقرره من سياسات تخص دولته. فالدليل على استدلاله الدائم بآيات القران الكريم والسنَّة النبويَّة واضح للغاية؛ فأغلب مراسلاته يذّكر فيها بآيات الذكر الحكيم وأحاديث المصطفى -عليه الصلاة والسلام-.

أمَّا أخذ مشورة الرجال، فيسطر الإمام مقولة رائعة تنم عن عقل راجح، ونفس طاهرة، وإيمان راسخ، فيذكر في مراسلة جوابية بعثها يوم ٢٨ من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٦٥هـ، إلى محمَّد بن سليمان بن حميد الحارثي، بعد أن يجيبه فيها عن سؤاله في آليات التصرف في ورثة أحد الشيوخ المتوفَّين، فيقول: "والحق يُقبل ممَّن جاء به وممَّن قام به، وإنها لمسألة مهمة وأول النظر في معرفة الحق والباطل والبحث فيها، ولابد أن يتجرد"[١].

ومن هذا المنطلق، يطبق الإمام الخليلي المشورة في أغلب مراسلاته؛ فتوجد عبارات عدَّة تبين منهجه في أخذ المشورة والاستماع إلى آراء الآخرين وأفكارهم، وعدم إجبارهم فيما يمكن الاختيار فيه، فيقول في أحد رسائله: "إلاَّ إنِّي أرى كلا له نظره، وبالجملة إن رأيتم المسير، وتحملتم شأن الخسر، لا أقول من أموالكم، ولكن إن رأيتم بيع أموال المسلمين فبيعوه"[٢]. ويقول أيضًا: "هكذا في أنفسنا إنك لا تُجهل ولا نقول بلا علم"[٣]. ويدعو عماله إلى ضرورة التشاور والبحث في أحسن الحلول، ففي رسالة جوابية بعثها الإمام الخليلي للشيخ حمد بن سليمان بن حميد بخصوص ترميم أحد الثغور يقول له: "فتناظروا فيها أنت والمشايخ والجماعة"[٤].

وتوجد في مراسلاته للشيخ عيسى الحارثي عبارات واضحة تبين أهمية المشورة، وحرصه في طلب المناقشة، والنصح، والمشورة عند البت في الأمور: "فوجب مناظرتك في ذلك، فإن رأيت ذلك، (...) فانظر في ذلك والذي تراه من النظر

١) المصدر نفسه، ص٧٧.
٢) المصدر نفسه، ص٢-٣.
٣) المصدر نفسه، ص٣.
٤) المصدر نفسه، ص٢٧.

غير معذور من إبدائه، وليس من سيرة الأوائل السكوت عن أمر، وكيف أنت تسكت وتقول لا أتكلم في وال ولا قاض، أنتم ولوا فلانًا واعزلوا فلانًا، كأنك غير شريك في الأمر، نحن إن أحسنا يكتب ذلك في حسناتك، وإن أسانا إليك يكتب في سيئاتك، ومن أدخلنا في هذا الأمر غيرك؟ فإن كان لك نظر في أمر دينك فاجتهد وشمِّر حسب طاقتك، وما حملنا على هذا القول إلاَّ أن رأينا أن الأمر لا يستقيم أن نكتم نحن النصح وأنت تكتم ما في نفسك والله حسبنا ونعم الوكيل"[١]

ويقول الإمام -رحمه الله- ناصحًا ومقدرًا لرعيته: "أنت عليك الاجتهاد وستجد هنالك من الأفاضل وأهل الخبرة بنخل ولا تجده بغيرها، ولا يلزمنا ويلزمكم بعد الاطلاع والاجتهاد شيء"[٢].

وتظهر في أحد مراسلات الإمام الخليلي للشيخ عيسى آليات التوجيه والنصح مع ترك مساحة حرية للرأي الآخر، على وفق ما يراه من مصلحة، فيقول بشأن تحركات بعض الأفراد، التي أثارت بعض الشكوك لديه، "وما رأيته من الرأي أن العامل لا يطلق له ويجعل له شيء معيَّن، هذا حسن- ولكن ما ترى لحمد بن عبد الله أقصى ما يكون له ولضيافته ولعسكره، فإنك لم تصرح لنا بذلك، وأنت أدرى بما هنالك والسلام"[٣].

والإمام - رحمه الله- حريص على النقد والتناصح ولو على نفسه، ولا يقبل عذر من لا يبادر بالنصح والتنبيه، فيقول في سياق مراسلته للشيخ عيسى الحارثي: "والمرء بأخيه، فما رأيتم منَّا من القصور والتقصير يجب عليكم تسديدنا والتنبيه، فلعلك تتعذر بعدم القبول، وليس هذا بعذر إن أديت الواجب عليك، وكان القصور أو التقصير من غيرك، فماذا عليك! إنَّما على المرء وله سعيه"[٤]

وحين نبه الشيخ ناصر بن سالم بن عمير الإمام الخليلي على أنَّه لا يستمع لمشورة الآخرين، كان رد الإمام في قمة الإنصاف والأخذ بالحق على نفسه، فأرسل يقول في جوابه: "وأقول، الحكمة ضالة المؤمن، وأرى تنبيه ناصر بن سالم بن عمير هو

١) المصدر نفسه، ص٧-٨.
٢) المصدر نفسه، ص٢٣.
٣) المصدر نفسه، ص٤.
٤) المصدر نفسه، ص٦.

الحق، حين قال: نراك أيها الإمام، أنت والشيخ عيسى، أن كل واحد ليعجبه رأيه، ولم تتركوا لغيركم رأيًا، ومن أجل ذلك أرى الأمور فيها للمقال مجال، فلنرجع نحن وأنت إلى هذا. وأنا أمسك عن أمر الرستاق، ولا أقدم فيها قولاً، ولا رأيًا أبدًا، حتَّى تحضر أنت والمسلمون، فما اجتمع عليه اثنان وخالفهما الثالث نكون مع الاثنين، وذلك على شرط الاجتماع، ما كان مسألة دينية نرجعها إلى الدين، وكل يجيب، ولا تقليل ولا مداهنة ولا تبجيل، وكذلك أمر الرأي يوضع عند أهله، هذا قولي والوعد منك، وكل واحد من القضاة يحمل نفسه"[1]. فهذه الرسالة تدلُّ على شفافية الإمام ووقوفه عند هذا التنبيه لأجل إفساح المجال للنظر والمشورة واعتبار هذا التنبيه حق يجب أن يؤخذ به.

والحرص والاجتهاد في النصح والأخذ بالحق والالتزام به يبرز واضحًا في شخصيَّة الإمام الخليلي. ويدل على ذلك كتاب الإمام إلى الشيخ عيسى بن صالح بن علي الحارثي، وهو من كبار رجالات الدولة، وله مواقف وطنية مشهودة، فهو أول من قام بالتمهيد لعقد اللقاء الذي تمخض عنه اتفاق السيب بين السلطان تيمور بن فيصل والإمامة عام ١٩٢٠م[2]، ويكنّ له الإمام الخليلي التقدير والاحترام. فقد كتب الإمام الخليلي إلى الشيخ عيسى بن صالح الحارثي:

"كتابك وصلني، ونحن نعلم الحالة غير جاهلين بها، والحقيقة التي عليها الوجوه الكثيرة في حقه قليل، إلاَّ أنَّها طبعت النفوس، كل يرى حالته وحاجته، فحينئذ يجب الإسقاط على الكل. وقولك نرجع إلى أنفسنا ونستقيم، فإن استقمنا يستقيم الغير ويستقيم لنا الناس. طريق الاستقامة صعب والمرء بأخيه، فما رأيتم منَّا من القصور والتقصير، يجب عليكم تسديدنا والتنبيه، فلعلك تتعذر بعدم القبول، وليس بعذر إن أديت الواجب عليك، وكان القصور أو التقصير من غيرك، فماذا عليك إنَّما على المرء وله سعيه، وقولك أصل الديار وأرتب أمر الزكوات، فحينئذ لا يقوم أمر الحاصل بما يكون من الخسر، ثمَّ أنَّه وصلني كتاب من الولد سالم بن محمَّد يريد أن أكتب لك في محاسبته في أموال المساجد، ويريد أن يتعذر من أموالها، ولا نرى غير هو، لا نعذره. إلاَّ إن رأيت أنت أمرا فعرّفنا به، والحساب

١) المصدر نفسه، ص٩.

٢) معجم أعلام الإباضيَّة، قسم المشرق، مادة رقم ١٠١٥.

حسن فحاسبوه، وواصلكم بعض المتعلمين خلف هنالك، فهم أولى بذلك، وإلا فنريد منها للمتعلمين هنا، إذا لا نجد لهم هنا شيئا وهم قد أخذوا في العلم، ونرى في بعضهم أهلية ونأمل فيهم الصلاح، وتركهم بعد أن ظهرت منهم مخايل الصلاح يشق، والله نسأله الإعانة والتوفيق حررته يوم ٧ ذي القعدة سنة ١٣٥٤ سلم على الأولاد والأصحاب"[١]. فمما تنطوي عليه هذه الرسالة من سمات الإمام وخصاله:

- تتبعه لشؤون الإمامة ومعرفة أحوال أهلها.
- فهمه لطبائع الأنفس، ومعرفته بالطباع، وكيفية تقبل الأفكار والمعلومات، وبأن الوعي بالحقيقة المطلقة صعب في التفكير، وأن للحقيقة أوجها كثيرة، وكل يرى الحق من جانبه.
- تقبله للنقد من الشيخ عيسى وموافقته له في أن استقامة الإمام وعماله تؤدي إلى استقامة الناس.
- طلبه التنبيه على أي تقصير أو قصور يقع فيه الإمام ويلزمه إيَّاه، ولا يقبل العذر عن عدم إبداء النصح، وأن التعذر برفض البعض لقبول النصح لا يعفيه، وعلى المرء الاجتهاد في النصح مهما كانت النتيجة.
- لا يقبل الإمام التأخير في إنجاز أعمال الزكاة وطلب عدم انتظار وصوله، لما في ذلك من ضياع للحقوق وخسران لها.
- نزاهة العامل وشفافيته عبر حرصه على طلب المحاسبة عند الإعفاء؛ وهذا يدلُّ على حسن اختياره لموظفيه وعماله.
- تشجيع العمال على المحاسبة؛ ففي ذلك صلاح الأمور.
- إرسال المتعلمين لتولي شؤون التعليم والتربية.
- الصرف على الطلبة والعناية بهم.

١) الفتح الجليل، ص٥-٦.

- تتبع الطلبة وتقييمهم والحرص على استمراريتهم، وعدم تركهم في مغبة التهاون.

التقدير والاحترام والعطف:

كان الإمام -رحمه الله- يظهر الاحترام الشديد والتقدير لرعيته ولرجالات دولته، ويبعث لمحبيه وأعوانه برسائل التهنئة عند المناسبات والأعياد ويدعو لهم بالخير، مثل قوله في أحد رسائله: "وبعد فكتابك وصلني وفهمته والهناء عائد إليك بكلِّ خير"[١]. وكثيرا ما يصف مخاطبيه وعماله وقضاته- كلا حسب مكانته- (بالولد) تكريمًا منه ورعاية لهم، كقوله: "الشيخ المحترم الولد العزيز"[٢]، وأيضًا "من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله إلى الشيخ المحترم الولد العزيز حمد ابن شيخنا العلاَّمة السالمي"[٣]. ويخاطبهم أيضًا بلفظ الشيخ الفقيه النزيه، والشيخ المحب المحترم، فيكتب للعلامة عيسى بن صالح بن علي قائلا: "الشيخ الأكرم الأعز الأحشم الأخ الرضي العلَّامة"[٤]. وأمَّا خطابه للباشا سليمان الباروني، فقد حمله وصفًا خاصًا تقديرًا واحترامًا له، يدلُّ على تقدير الإمام للرجال وإنزالهم منزلتهم، ومعرفته بعلو مرتبتهم، وشرف منبتهم. فيستهل الإمام محمَّد - رحمه الله- رسالته للشيخ سليمان الباروني بالقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمَّد بن عبد الله بن سعيد الخليلي، إلى أخيه ذي الشرف الباذخ والمجد الشامخ المجاهد في الله الحامي لدينه سليمان بن عبد الله الباروني"[٥]. ثمَّ يدعوه لزيارته وتأمين حاجياته زيادة في إكرامه، وهذا دليل على علو همة الإمام وسمو خُلقه -رحمه الله-. وفي مراسلته للقاضي أبي الوليد سعود بن حميد بن خليفين، لا ينسي الإمام الخليلي إلقاء التحية والسلام على الأهل والخلان والسؤال عن باقي الأسرة فيقول: "سلموا على الأولاد والأصحاب"[٦]، وفي مراسلة أخرى، يكتب

١) المصدر نفسه، ص٢٠.
٢) المصدر نفسه، ص١٨.
٣) المصدر نفسه، ص١٨.
٤) المصدر نفسه، ص١٠.
٥) المصدر نفسه، ص٣٩.
٦) المصدر نفسه، ص١٧.

له: "سلم على عمك وإخوتك والأولاد"[١].

الدقة وتبيان الأمور:

امتازت شخصيَّة الإمام الخليلي - رحمه الله - بالحرص الشديد في تحري الأمور والاستماع إلى الخصوم فيما يقدم له من شكاوى ومظالم والوقوف بنفسه على تفاصيلها، خاصَّة عندما يتعلَّق الأمر بحقوق الرعية. فعلى سبيل المثال: يطلب من القاضي أبي الوليد انتظار وصوله للبت في إحدى القضايا، ولم يتسرع في إعطاء أحكامه بدون استكمال معرفة جوانب الحادثة، وتبيان كل الأقوال فيها، فيقول في مراسلته له: "أمَّا بعد، فكتابك وصلني وأمر الهطاطلة[٢] ما كتبت، إلاَّ أنِّي أرى أنَّه لابد من وصولي لذلك الطرف، والأمل إن شاء الله بعد العيد والله المعين والميسر"[٣].

وكان الإمام يتتبع أخبار إمامته ويعرف ما يحدث فيها، وينبه على التقصير في الأخبار بأسلوب لطيف وراق؛ فيكتب للشيخ عيسى علمه بتفاصيل وصول أمير بني بوعلي، وتحركات حمد بن سالم الحجري، ومسير حمد بن عبد الله، وعودة سالم بن سيف، ويوافقه فيما ارتآه من رأي في عدم إطلاق يد العمال، وضرورة ضبطها، ثمَّ ينبه فيقول: "ولكن ما ترى لحمد بن عبد الله أقصى ما يكون له ولضيافته ولعسكره فإنك لم تصرح لنا بذلك وأنت أدرى بما هنالك والسلام"[٤].

ويتبين من رسالته الجوابية للشيخ عيسى بن صالح الحارثي اعتماده مصادر مختلفة لمعلوماته، وخاصة في معرفة بعض الصعاب التي تمس شؤون الدولة، فيستهل رسالته بالقول "كتابك وصلني ونحن نعلم الحالة غير جاهلين بها"[٥]. ويتضح حرص الإمام ودقته في تتبع شؤون الرعية في رسالة جوابية بعثها إلى الشيخ محمَّد بن عبد الله بن حميد، يقول فيها موجهًا ومنبهًا ومستغربًا لمراسلته في شأن بعض الأعراب المخالفين، في حين يسكت عن آخرين، يمنعون حقوق الله: "أقول:

---

١) المصدر نفسه، ص٣٥.

٢) الهطاطلة قبيلة من قبائل عمان، ينظر ملحق التعريف بالقبائل.

٣) الفتح الجليل، ص١٩.

٤) المصدر نفسه، ص٤.

٥) المصدر نفسه، ص٥٠.

العجب أن يلام أعراب لا يفهمون شيئًا من أمر الدين، ويسكت عن غيرهم، وهم من يأكلون الفرائض، ويتشدقون في القول، والرجل يأتيهم ليلاً ونهارًا، ويعتذرون بعدم الأمر منَّا ونحو ذلك، ممَّا ليس له طائل، والأمر قد صدر"[١]. ويظهر حرص الإمام على اقتران القول بالعمل من قوله: "واعلموا أن قول ابن النضر: "نحن الإباضيون أسدُ الغيطل"[٢] ينبغي أن يصدق في المقال، ولا يكون دعوى بحث"[٣].

الشدة والحزم:

تلوح في عدد من مراسلات الإمام الخليلي إشارات واضحة عن حزمه وشدته، رغم ما عرف عنه من لين الجانب، والأخذ بحسن النوايا، والتساهل مع الرعية. وتحتوي رسالته للقاضي سعيد بن ناصر الكندي، نماذج من شدته وقوة موقفه؛ فيرسل له معترضًا ومنبهًا فيقول:

"وأمَّا ما ذكرته يا سعيد كأنك ترى الصواب في فعلك وأنك ترى الخطأ في مراجعتنا وفي تبليغ الناس مهمهم إلينا، كأنك جاهل بسيرة السلف. اعلم أن عليك القيام بالأمر، وعلينا تقويمك إن اعوججت، رضيت أو كرهت، ولسنا ممَّن إذا قيل له بأمر غضب وسكت، من راجعنا راجعناه، ومن أتانا بالحق قبلناه. وكان الواجب عليك أن تراجعنا بإظهار الحق وتبيانه، لا بالسكوت والتأخير، ورد الأمر إلينا في العظيم والحقير، يا أيها المسلمون ناقشوا أنفسكم وراجعوا دينكم، ولا يسكت أحد منكم عن أمر يرى الحق في غيره ولا عن نصح، ومن نصح فعليه أن يقبل النصيحة. وعليك يا سعيد أن تبين لنا وجه ما توجب به على نبهان القيد. إن كنت توجب عليه ذلك، فإنَّه قد طلب ذلك، ونحن طلبناه منك، والسلام. وما سيرتنا التشفع لأهل الجنايات، ولا أنا نحب أن تقصدني للأمر. وقولك السعيد من اكتفى بغيره، ما في كلِّ موضع، وليت السلامة تحصل لنا ولك، وهيهات ذلك"[٤].

فتعدُّ هذه الرسالة منهج عمل للقضاة بصفة عامة، رغم كونها موجهة للقاضي

---

١) المصدر نفسه، ص٢٦.

٢) من قصيدة للعلامة الشيخ أحمد بن النضر في تسمية علماء ورجالات المذهب ومطلعها:
ندين لله ببغض الجهل أهل الضلال والردى والزلل.

٣) الفتح الجليل، ص١٤.

٤) المصدر نفسه، ص٦١-٦٢.

الكندي، إذ يتبين فيها حزم الإمام وشدته واعتراضه على موقف القاضي، وتوضيح سياسته التي عليه الالتزام بها، وضرورة رجوع القضاة إليه فيما يصدرون من أحكام. وفي موقف آخر، يراسل منصور بن ناصر ويحثه على الحزم "ولا تحقرن عدوًّا أتاك (...) وعليكم بالحزم والعزم والصبر، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (سورة الأنفال: ٦٠)"[١].

السياسة والتدبير:

تنعكس أخلاق الإمام في مواقفه السِّياسيَّة، وطرائق حكمه، وأسلوب إدارته؛ فيسعى - رحمه الله- إلى إصلاح الرعية بالحكمة، ويطلب من ولاته مكاتبة القبائل، وحثها على الانضواء تحت راية الدولة، وحث زعمائها على الالتزام بدفع الزكاة، ويوصيهم كذلك بلين الجانب مع المحسنين وبالشدة مع أهل الشقاق والنفاق، وبعدم إرهاق الأهالي، "وكان أقصى الجهد التخفيف من الفرائض، والحض في الاستقصاء في قبض الزكوات"[٢].

ومن حنكة الإمام السِّياسيَّة، وحسن تدبيره أنَّه يتدرج في مواقفه بين اللين والشدة بما يتناسب والموقف الذي يعالجه؛ ففي المواقف التي تستدعي الحزم لا يتردد الإمام في أن يكون حازمًا، فيحث ولاته على الضرب بقوة على من يريد الشقاق والعصيان. فيكتب إلى الشيخ عامر بن خميس بن مسعود المالكي (ت: ١٣٤٦هـ)، بعد أن سمع أخبارًا أقلقته وعكرت صفو أمن البلد قائلاً: "كتابك وصلني وفهمته، وإنِّي أتخوف التبعة كما ذكرت، لعلمي بالتقصير، والركون إلى الراحة والاستراحة وآل (...) لا أراهم يستقيمون، وأنت تعلم ما هنالك، ومن أين ترجى استقامة من أحد على هذه السيرة التي نحن عليها، فشمروا لجهاد أعداء الدين بالتحريض على ذلك، وإنِّي قد دعوت الناس على المثار على آل (...)، فإن نَصَرَ الله المسلمين هنالك، فالمرجع إلى الغربية"[٣].

ومن جميل موقف الإمام الخليلي، واتساع أفقه الوطني والإسلامي، أنَّه لم

١) الشكيلي، إبراهيم بن محمَّد: مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي وأثرها في نشر العلم، ، ط١، ٢٠١٣م، ص٥٤.

٢) الفتح الجليل، ص٧.

٣) المصدر نفسه، ص٤٦. الغربية: يبدو أن المقصود غربية عمان.

يجد غضاضة في تكليف الباشا سليمان بن عبد الله الباروني[١] مندوبًا ليمثله في مؤتمر الدول الإسلامية[٢] في مصر، ولا يفوته إرشاده بمرتكزات هذا التمثيل فيوصيه قائلاً: "وليكن رأيك في مسألة الخلافة مطابقًا لقواعد الشرع الصحيحة، وهي لا تخفى عليك، أمَّا مسألة الأماكن المقدسة فليكن رأيك فيها حمايتها من عبث العابثين بها، ووقايتها من تسلط كل بلد أجنبية عليها، مهما كان مقصدها وصبغتها"[٣]. ويحث الإمام الشيخ الباروني على إعلامه بمستجدات الموضوع لأهميته العامَّة للدولة والأمة، فيؤكد على الشيخ الباروني بالقول: "والمنتظر من جنابك موافاتنا بالأخبار الصحيحة بدون فاصلة"[٤].

استيعاب الإمام للنقد والانتقاد:

ممَّا لاشك فيه أن مهمة الرئاسة وتولي شؤون الرعية تعرض صاحبها للانتقاد، وانطلاق الألسن عليه بوجه الحق أو بدونه. وقد تعرض الإمام الخليلي -رحمه الله- للعديد من الانتقادات التي تضمنتها ثنايا مراسلاته، ويتضح موقفه منها في ردوده المباشرة عليها، وإجاباته الحازمة عنها. وأبرز الأمثلة على الخطابات الناقدة التي بعثت إلى الإمام الخليلي، وتبرز شخصيته المتفهمة والمتقبلة للانتقاد، تلك الرسالة التي بعثها إليه الشيخ القاضي علي بن محمَّد المنذري، عَدَّدَ فيها جملة من الانتقادات ضدَّ الإمام منها:

- محاباة الأغنياء والأكابر بالأعطيات.
- اتِّباع اللين في مواقف الشدة.
- إباحة الخروج للناس.
- دخول وادي بني خالد.
- عدم تبديل الولاة.

---

١) أبو اليقظان، إبراهيم: سليمان الباروني في أطوار حياته، القرارة، ١٩٥٨، ج ٢، ص٢٧.

٢) مؤتمر الدول الإسلاميَّة، يبدو أنَّه من الاجتماعات التأسيسية المبكرة، إذ أن المنظمة تأسست رسميا في المغرب سنة ١٩٦٩ إثر حريق القدس، ويضم المؤتمر العديد من الدول الإسلاميَّة؛ وذلك لأجل حماية مصالح الدول الإسلاميَّة. ويفهم من رسالة الإمام الخليلي أن القدس أيضا كانت محور الاجتماع، وكلف الشيخ سليمان الباروني لحضوره، وأيضًا تبين المراسلة بأنَّه لم يثبت مكان انعقاد المؤتمر إن كان في مصر أو غيرها.

٣) الفتح الجليل، ص٤٠.

٤) المصدر نفسه، ص٤٠.

- إعطاء خير الديار لبعض الشخصيات.
- الاعتراض على بعض الولاة والقضاة.

وقد ردَّ الإمام بصدر رحب على تلك الاعتراضات نقطة بنقطة، موضحًا وجهة نظره بالحجة والدليل، ويسهب في الشرح للناقد؛ كي تنجلي عنده الصورة، وتزول شبهات النقد، فقد قال الإمام:

"من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله بيده إلى الولد الناصح علي بن محمَّد بن علي. سلام عليك. كتابك الذي فيه النصيحة وصلني. نسأل الله أن يجعلنا ممَّن يقبل النصح. وأنت قد أديت ما عليك من النصيحة. وأقول: أمَّا قولك أنا نعطي الأغنياء والأكابر؛ فنعطيهم والقصد إمَّا جلب خير أو دفع شرٍ، ولنا بالنبيِّ ﷺ أسوة؛ حيث أعطى صفوان بن أمية ملء واد نعمًا، وأعطى رجالاً ومنع من هو خير منهم اتكالا على دينهم. وقد قال عمر بن عبد العزيز: ما أحيينا سنة إلاَّ ببذل أموال. وأمَّا قولك من قبل الشدة، فذلك أمر نعلمه من أنفسنا، ولكن الشدة مع هذا تحتاج لرجال، فأين هم؟! وأمَّا قولك أبحنا للناس الخروج؛ فما أبحنا، وإن كنت تعني الشيخ عيسى لما رأينا نظره ذلك، وصوبه واعتمد عليه؛ لم نر مخالفته، ونحن نحس به"[١].

ويقابل الإمام منتقديه بالرد الجميل والمتفهم وبعبارة تصب في سياق الاستيعاب للنقد، والرد بالحجة. ففي رده على الرسالة التي بعث بها إليه الشيخ أحمد بن محمَّد بن عيسى يقول الإمام: "اعلم أن العاقل لا تضحك عليه نفسه، يبكتها ويسكتها ويسكنها؛ فإذا لم يقم بأمر الزكاة وإقامة الصلاة وتحدثه بطلب الشهادة لكونها غير حاضرة، فهذا غِرٌّ"[٢].

وعندما تزداد لغة المنتقد للإمام حدة، يصبح الإمام أكثر سكونا وهدوءًا. فقد وجه عبد الرحمن الخروصي رسالة لوم شديدة إلى الإمام؛ لأنَّه عين جابيا آخر غيره على "ستال" بعد الاتفاق على أن يتولاها هو، فيقول منتقدًا الإمام: "أنا خروجي أمس عنك على طريقة، وقد صار العكس بالحال، فهل يليق لمنصبك

١) المصدر نفسه، ص٦١.
٢) المصدر نفسه، ص١٠-١١.

ذلك؟! كلا، ولا على ذي عقل، فالأمل المبادرة بنسخ الجابي الثاني خوف الفتن لتعلم الجواب وعليك السلام"[١]. فيرد الإمام موضحا ومفسرا لفحوى الموضوع، ولا ينسى أن ينبهه على أسلوبه فيقول: "لا تنه عن خلق وتأتي مثله، وليس قولك هذا ممَّا تقتضيه السياسة والعقل (...)، فافطن إن كنت فطنًا والسلام"[٢].

ويوجه الإمام في معرض كلامه للشيخ أبي بشير محمَّد بن عبد الله بن حميد السالمي (ت: ١٤٠٥هـ) نقده بالحجة، وتبيان الحقائق، واستعمال التعريض فيقول: "العجب أن يلام أعراب لا يفهمون شيئًا من أمر الدين، ويسكت عن غيرهم، وهم من يأكلون الفرائض، ويتشدقون في القول، والرجل يأتيهم ليلا ونهارا، ويعتذرون بعدم الأمر منَّا ونحو ذلك، ممَّا ليس له طائل، والأمر صدر، لقد صح معنا أن هؤلاء له ظهرًا وعينًا،(...)، هذا أمر ينكره على هؤلاء كل مسلم"[٣].

ويرد على أحد منتقديه دون أن يسميه قائلا: "أمَّا بعد، فقد رأيت كتابك الذي ذكرت فيه من الهد والوعد، وتشير أنَّه وصل نزوى، والذي يصل نزوى يصل بالزخارف والأكاذيب، وهذا الرجل لم يصل في أمر يعنيك، وإنَّما يسأل في أمر يعنيه"، وبعد أن يذكره بفضل بعض الشخصيات، وحفظ معروفهم يقول له: وفي عتب من يحسد الشمس ضوءها: "أنزه نفسي عن مقال بغيبة وكل اغتياب جهد من لا له جهد"[٤].

اهتمام الإمام بطلبة العلم:

كان الإمام – رحمه الله – شديد الاهتمام بالتعليم، والاعتناء بالعلماء وطلبة العلم[٥]. وتدل رسالة الإمام إلى الشيخ حمد بن سليمان بن حميد، بخصوص أحد طلبة العلم واسمه سعيد بن محمَّد الزيدي، على ملامح من سياسة الإمام التعليمية، إذ يقول في تلك الرسالة: "وبعد، فإنا نحمد الله إليكم. وهذا سعيد بن

---

١) المصدر نفسه، ص٢٤.
٢) المصدر نفسه، ص٢٥.
٣) الفتح الجليل، ص٢٦.
٤) المصدر نفسه، ص٣٠.
٥) الشكيلي، إبراهيم بن محمَّد: مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي وا□ثرها في نشر العلم، ، ط١، ٢٠١٣م.

محمَّد الزيدي، وصلنا طالبًا للعلم، ولما بلغه أن يزيد معكم يدرس ثمَّ تواجهوا ورغبه، وهو راغب أن يكون قيامه هنالك قرب يزيد، فإن وصل فواسوه من فضلة المسجد الذي بالنصيب فهم أحق بالمواساة منه، هذا إن رأيتم سعة وإلا فالعذر واسع"[١]. فتدل الرسالة على استقبال الإمام لطلبة العلم، واهتمامه بهم، ورعايتهم، وتحمل تكاليف إقامتهم، ومعيشتهم.

الفتاوى الدينيَّة وتطبيق الشرع:

كان الإمام الخليلي - رحمه الله - مرجعا في أمور الدين كما هو مرجعا في أمور السياسة. فكانت ترده العديد من المراسلات تستفتيه في شؤون الناس، ومشاكلهم الدينيَّة والاجتماعيَّة. ولسنا هنا بصدد التوسع في ذكر فتاوى الإمام الخليلي وآرائه الفقهيَّة؛ ففتاواه موجودة في مظانِّها، وإنَّما تعنى الورقة بما حوته مراسلاته من إضاءات تحمل طابع الفتوى.

فقد اختلف الفقهاء في قضيَّة امرأة تزوجت، ولم تخرج بعد من العدة أو من الحمل، فبعثوا للإمام الخليلي يسألونه، عارضين عليه ما اجتهدوا فيه من رأي، فرد عليهم الإمام قائلا: "ومسألة المرأة أرى قول سعود بن حميد أقرب إلى الحق، وقول محمَّد بن راشد لا دليل عليه"[٢]، ويوجه الإمام الخليلي بضرورة الأخذ بظاهر أمور الناس عند الفتوى إذ يرى: "حمل الناس على الظاهر من سلامة دينهم هو الأولى"[٣].

ويرى الإمام الخليلي أن للزكاة أهمية للدولة، لذا يؤكد على ولاته بضرورة حث الناس على إخراج الزكاة. ويرى الإمام أن أموال الزكاة تصرف في منافع الفقراء، وما يصلح شؤون البلد، والمنافع العامَّة كتقوية الحصون، وصيانة آبار الشرب ونحو ذلك. ففي رسالة الإمام إلى صالح بن أحمد بن صالح، يقول: "وخذ من الناس الزكوات التي ألزمها الله عليهم: من زكاة الثمار والنقود والحيوان، فإنَّها لكم قوة، ولهم نمو وطهارة. وقوموا بما يلزمكم لله من النصح لهم، وتعليمهم،

١) الفتح الجليل، ص٢٨.
٢) المصدر نفسه، ص٢٧.
٣) المصدر نفسه، ص٢٧.

وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وقوّموهم إذا لم يستقيموا في أمر الزكوات؛ فإن الناس يصعب عليهم الحق، وإن كان مرجع الصلاح إليهم"[١]، ويقول كذلك: "وأرى لكم أخذ الزكاة منهم؛ لتجعلوها في مصالحهم ممَّا يقوي أمركم؛ لحماية البلدان إن كان في بناء الحصن أو تكثير العسكر أو عُدة، وإن رأيتم البناء للحصن، فخذ قرضة منهم"[٢].

اهتمام الإمام بالعلاقات الخارجيَّة:

تظهر مراسلات الإمام اهتمامه بإقامة العلاقات مع أُمراء وحكام الجوار، وهي علاقات هدفها الحفاظ على وحدة الصف، ولم شمل الأمَّة الإسلامية، والسعي الدؤوب نحو توثيق عرى الوحدة الدينيَّة. وتبين تلك المراسلات أيضًا أن الإمام الخليلي كان مطلعًا على أحوال الأوطان الإسلامية ومتتبعا للمشهد الإقليمي والدولي.

فقد رحب الإمام الخليلي بالمجاهد الكبير وأحد أعمدة الكفاح ضد الاستعمار الغربي الباشا سليمان الباروني، وسمح له بالإقامة في عُمان، عندما نفاه المستعمر الإيطالي من بلاده ليبيا. حيث سارع الإمام الخليلي بإرسال رسوله للباشا الباروني يحمل كتابا يسأله فيه زيارته في نزوى، ويطلب منه تحديد موعد لتلك الزيارة؛ حتَّى يرسل له من يرافقه، ويأمن لهم الطريق، ويؤكد له أن أهل عُمان فرحون لقدومه متشوقون للقياه، ويطلب منه عدم التردد في طلب احتياجاته من الرسول[٣]. وقد بارك الإمام تكليف السلطان تيمور بن فيصل البوسعيدي (١٨٨٦- ١٩٦٥م) للباشا سليمان الباروني؛ ليكون مبعوثه الشخصي إلى الأمراء المتحاربين، في نواحي مكَّة، وعَدَّ الإمام ذلك الصراع من أهم القضايا التي تشغل قلوب المسلمين، والسعي فيها بالصلح والإصلاح من أهم الواجبات. وكلف الإمام نفسه الشيخ الباروني؛ ليكون مندوبه؛ ليمثل الأمَّة العُمانيَّة في المؤتمر الإسلامي الذي عقد سنة ١٣٤٣هجرية[٤].

---

١) المصدر نفسه، ص٣٧.
٢) المصدر نفسه، ص٣٧.
٣) المصدر نفسه، ص٣٩.
٤) المصدر نفسه، ص٤٠.

وعلى مستوى العلاقة بالمغرب العربي، تدلُّ بعض مراسلات الإمام على وجود تواصل تاريخي بين إباضيَّة شمال إفريقيا وإباضيَّة عُمان في عهد الإمام الخليلي. إذ قام بعض الحجيج الميزابيين، منهم صالح بن علي(باعلي) وصالح بن يحيى وسعيد بن علي، باغتنام الفرصة في أثناء وجودهم بالأراضي المقدسة بمكَّة المكرَّمة بإرسال مجموعة من المخاطبات إلى الإمام الخليلي احتوت على تساؤلات فقهية في خلافات وقعت في بلدهم. وقد كتب الإمام في الرسالة الجوابية إليهم مسلمًا ومرحبًا ومُقدمًا النصح، وباذلا جهده في الإصلاح، والحرص على ربط أواصر الأخوة، والابتعاد عن الفرقة وما يؤدي إليها، وإيجاد العذر، وعدم التسرع في إصدار الأحكام على إخوانهم. فيقول الإمام في رسالته: "أوصيكم بالتثبت في الأمور، وأن لا تعجلوا على إخوانكم بقطع العذر والبراءة، واحتملوا للمسلمين فيما كان فيه محتمل، (...) أن لا ينصبوا الرأي دينًا، فإن الله ﷻ جعل هذا الدين يسرًا، (...) وقد رأيتُ في غضون تلك الورقات ما لو برهن بالبرهان لتبين أي بيان أنَّه من مسائل الاجتهاد وأن للرأي فيه مجالا، وللعلماء فيه مقالا، فلا يفضي بها إلى التخطئات وقطع الأعذار"[١].

وفي إطار العلاقة مع الدولة السعوديَّة، بعث الإمام رسالة حررت يوم ١٠ شوال ١٣٦٩هـ[٢] إلى الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود مسلمًا وناصحًا ومشيرًا إلى رغبة الشيخ محمَّد بن العلَّامة السالميفي الاجتماع بالملك، وأنَّه شخصيا مهتمٌّ بوحدة الأمَّة واتحاد بلدانها، والتعاون في ما ينفع المسلمين. وقد حملت رسالة الإمام الإشادة بسيرة ملك آل سعود في إبداء السيرة الحسنة والنصح والسعي للم الشمل، واحتوت تنويهًا بأن اجتماع الناس حول الملك مرده إلى ثلاثة أسباب وهي:

- طمعهم في رفده وإحسانه.
- سماعهم بسيرته، وحبهم لها.
- حبُّه للوحدة، ولَمِّ شمل الأمَّة.

وبعث الإمام إلى الملك عبد العزيز رسالة أخرى يحثه فيها على استقبال

١) المصدر نفسه، ص٥٢.

٢) المصدر نفسه، ص٤٠.

الحجيج من كافة أقطار الإسلام واحترامهم؛ حيث أن الدين واحد والكل حريص على لم الشمل والتذكير بالخير[١]. وبعث إليه برسالة أخرى بتاريخ ١٩ ذي القعدة ١٣٧١هـ، يوصيه فيها بالاهتمام بالشيخ محمَّد السالمي، الذي يمر مسلمًا على الملك في طريقه لأداء فريضة الحج، وينوّه على حرصه الدائم على متانة العلاقة بينهم[٢].

وبعث -أيضا- رسالة إلى ولي عهد المملكة العربيَّة السعوديَّة الأمير سعود بن عبد العزيز بخصوص صيانة بيت خاص في مكَّة المكرَّمة موقوف لخدمة الحجيج العُمانيِّين، ويطلب منه تقديم يد العون إلى الشيخ محمَّد السالمي بوصفه مكلفًا من قبله بذلك[٣].

وعندما تولى الملك سعود بن عبد العزيز الحكم في المملكة العربيَّة السعوديَّة استمر الإمام في توجيه الرسائل المليئة بالود والاحترام والنصح، وضرورة الالتزام بتعاليم القرآن الكريم، وسنة نبيه الكريم ﷺ.

وتثبت مراسلات الإمام أن شخصيَّة شعلان بن ناصر كان لها عظيم الأثر في التقريب بين الملك والإمام. فقد قام الشيخ شعلان بن ناصر بزيارة الإمام في أكثر من مناسبة، والتعرف إلى علماء عُمان والترابط العلمي والديني معهم.

وتعبر كلمات الإمام ولهجة الخطاب عن الندية في التعامل، والحرص على الحفاظ على حسن الجوار، فيقول: "ذكر لنا مودة حكومة جلالتكم، وعطفكم على رعايانا، واهتمامكم بشؤوننا، وحرصكم على دوام استقلال بلادنا، وأنكم لا تألون جهدًا بالدفاع عنه"[٤].

ويؤكد الإمام في خطاباته إلى الملك سعود الدعوة المبكرة إلى نبذ المذهبية التي تمزق شمل الأمَّة الإسلاميَّة فيقول: "ومن الأمر بالمعروف السعي إلى توحيد كلمة المسلمين، وإلى إماتة الانتساب إلى المذاهب، وإظهار التعصب لها اللذين قضيا

١) المصدر نفسه، ص٤٢.
٢) المصدر نفسه، ص٤٣.
٣) المصدر نفسه، ص٤٣.
٤) المصدر نفسه، ص٤٤.

على الإسلام، وتسلط على أبنائه عبدة الأصنام الأجانب"[١].

ويؤكد الإمام في مراسلاته الحفاظ على الوطن العُماني، وسلامة أراضيه، ووحدة التراب العُماني، وحماية الأمَّة من التفكك والانقسام. إذ بعث الإمام رسالة إلى القنصل الإنجليزي في مسقط إثر رفع أحد المشايخ راية خاصَّة يعلن فيها انفصاله عن الأمَّة العُمانيَّة، جاء في نصها: "رأينا ضرورة إعلام جنابكم باسم الأمَّة العُمانيَّة، بأن الأمَّة لا تعترف بأي اتفاق خارجي يتعلَّق بالبلاد مع أي شخص كان، ولا تقبل مداخلة أجنبية بأي صورة كانت، وتمزق بسيوفها كل راية محدثة مهما كانت صبغتها ولو في شبر من الأرض داخل حدود مملكتها العُمانيَّة من ظفار إلى قطر، ومن البحر إلى الربع الخالي، وأنَّها مستعدة لمحاربة كل من يتوسل إلى ذلك بأي وسيلة كانت، مادامت في أفراد رجالها ذرة من الحياة؛ لأنَّها ترى مملكتها جسمًا لا يقبل التجزئة بوجه من الوجوه. فنرجو تبليغ هذا إلى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تلغرافيًّا؛ ليكون في عملها خدمة للسلم، وحقن للدماء، وفي الختام تقبل احترامنا وسلامنا"[٢].

اهتمامه بالصلح مع مسقط:

لعل من أهم المحطات في تاريخ عُمان الحديث، التوقيع في ١٣٣٩هجرية/ ١٩٢٠م على معاهدة السيب الشهيرة التي جمعت شتات الأمَّة العُمانيَّة وأقرت السلم بين أرجاء الدولة[٣]. وقد حرص الإمام الخليلي بمراسلة ذوي الرأي، عامر بن خميس المالكي وسيف بن علي المسكري، وأخذ المشورة منهم في الإقدام على توقيع الصلح، إذ طلب منهم الاطلاع على بنود الاتفاقية، وتصحيح ما يرونه مناسبا. وقد نصت بنود الاتفاقية على:

- تخفيض ضريبة العشور من ١٠٠ ٪ إلى ٥ ٪.
- تأمين الطرق البرية والبحرية لجميع المسافرين.
- إرجاع المشاغبين الفارين من العدالة من الطرفين والامتناع عن حمايتهم.

١) المصدر نفسه، ص٤٤.
٢) المصدر نفسه، ص٥٢.
٣) المصدر نفسه، ص٥٠.

- عدم التعرض لعُمان الداخل.
- عدم التَّدخُّل في الشؤون الدَّاخليَّة للإمامة.

ومن المؤسف ألاَّ يشمل كتاب "الفتح الجليل" غير هذه المراسلة رغم أهمية الاتفاقية؛ فمن غير المعقول ألا تكون هناك العديد من المراسلات غير هذه الرسالة، وألا تكون هناك مراسلات مع أطراف مختلفة، لاسيما القنصل الإنجليزي الذي أشرف على المعاهدة وكان طرفا فيها.

خاتمة:

تتضح من خطابات الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي - رحمه الله - ملامح شخصيَّته، بوصفه رجل دولة من الطراز الرفيع. فقد حاز الإمام ثقة المشايخ والشعب. وكان يرعى شؤون الرعية ويسعى لجلب مصلحتهم، ويذود عن مواطنيه ووطنهم. وسعى الإمام جهده لتطوير البلاد عبر الاهتمام بالتعليم، وتقوية حصون الدولة ضد أعدائها، والحفاظ على وحدة التراب. وسعى الإمام -كذلك- نحو إقامة شرع الله، والتمسك بالشريعة الغراء، والسير على نهج الرسول الكريم ﷺ، والسلف الصالح. وأقام الإمام علاقات طيبة مع جيرانه وإخوانه في الخليج والجزيرة وشمال إفريقيا.

المصادر والمراجع:

- أبو اليقظان، إبراهيم بن عيسى: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، القرارة، ١٩٥٨.
- الخليلي، محمَّد عبد الله: الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل، ط١، دمشق، المطبعة العربيَّة، ١٩٦٥.
- الشكيلي، إبراهيم محمَّد: مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي وأثرها في نشر العلم، ط١، عُمان، ٢٠١٣.
- ناصر، محمَّد صالح، والشيباني، سلطان بن مبارك: معجم أعلام الإباضيَّة من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، قسم المشرق، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٦.